

# إنسان في مواجهة النسيان والاستلاب

## تعليم أديب ناييف زياب

( محاولة في استنقراء المضمون الفلسفي لبعض اعمال نجيب محفوظ بعد النكسة ) .

في « اللص والكلاب » و « عمر الحماوي » في ( الشحاذ ) وأكثر شخصيات « أولاد حارتنا » تجسد أفكارا فلسفية ، وفلسفية دينية في اغلب الاحيان اكثر مما تمثل انماطا واقعية من انبش . على ان تلك المعطيات الثلاثة وحدها لا تفسر لنا كل ابعاد المرحلة الجديدة في انتاج نجيب محفوظ والتي تبدأ منذ منتصف عام ١٩٦٧ ، اي بعد الواقعة المذهلة المخزية في تاريخنا الحديث : النكسة ، التي ارادنا نجيب ان نفهم مجموعته الاولى ، في هذه الفترة (٢) . على ضوء منها . اذ نراه لأول مرة يقدم لنا احد اعماله يمثل هذه الملاحظة : ( كتبت هذه القصص في الفترة بين اكتوبر وديسمبر سنة ١٩٦٧ ) .

في هذه المرحلة يتجاوز نجيب أسلوبه المعتاد ( الذي توصل اليه في « أولاد حارتنا » سنة ١٩٥٩ وما تلاها ) والذي يقوم على العبارة المركزة والمناجاة الداخلية التي تتشال فيها تجارب الماضي للشخصية - بتكثيف شعري محكم - لتنبير اسرارها الداخلية في الحاضر . . يتجاوز هذا الاسلوب الى آخر يقوم على الحوار العقلي انجاف الذي يكاد يخلو في معظم الاحيان من المناجاة والشعر ، وتتوارى فيه ملامح الشخصيات في ظلال الحوار المسيطر فلا تكاد نحس بسماحتها انخاصة ولا بمواقفها في الزمان والمكان . ونجيب محفوظ هنا مثل سباح ماهر اجتاز بحرا متلاطم الامواج ليقف على شاطئه لاهنا دهشا في مواجهة الصخور النائمة ، اعني تلك الاسئلة القاسية الملحة والتي تتعلق بمعضلة الانسان في هذا العالم . انه يقف في مرحلته الجديدة وجها توجه مع معضلات الانسان الشائكة : الحياة والموت والحرية والهدف والرفان والنسيان والاستلاب . وهذه المعضلات ذاتها هي التي تجرر - الى حد بعيد - اغفال القسمات واللامح التي تعطي للقصة صورة واقعية - او شبه واقعية - ذات اطار صلب ملموم يميزها عن المحاورات او التاملات الفلسفية . وهنا الفموض ليس ضرورة تكتيكية للبناء الروائي فحسب ولكنه ايضا سمة للقضايا والمعضلات التي هي اساس ذلك البناء . والاحداث في قصص هذه المرحلة مذهلة في غرابتها لكن قضايا الانسان هي ايضا غريبة ومقعدة الى درجة الازهال . ولقد كان تناغم السرد مع المناجاة الداخلية التي تجيش في نفوس الشخصيات في قصص المرحلة

( الفتى : ينابيع الحياة الحققة مهددة بالجفاف ، اشواق القلب الخالدة يساومهما الضياع ، سحقنا للوحشة التي تدبل فيها معاني الاشياء . )  
من : مسرحية « يميت ويحيى »  
مجموعة « تحت المظلة » ص ١٦٦

- ١ -

سنذكر في مستهل هذه المقالة ثلاث وقائع معروفة لدى اغلب الدارسين والقراء المهتمين بنجيب محفوظ وقصصه :  
- تخرج كاتبنا من قسم الدراسات الفلسفية بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٤ ، وكان ترتيبه الثاني في دفته .

- وفيل تخرجه وبعده ( من سنة ١٩٣٢ وسنة ١٩٣٦ ) ، عني بالبحث والدراسة الفلسفية الجادة ، فنشر عدة مقالات متخصصة ( يتجاوز عددها العشرين ) في مجلة « المجلة الجديدة » التي كان يرأس تحريرها الاستاذ سلامة موسى . ومن هذه المقالات : « فكرة الله في الفلسفة » ، « فلسفة الحب » ، ( فلسفة برجسون . . الخ (١) .

- وبعد تخرجه ايضا عمل سنتين في الاعداد لرسالة ماجستير في الفلسفة ( تتناول مفهوم الجمال لدى علماء المسلمين ) تحت اشراف استاذة الدكتور الشيخ مصطفى عبدالرازق ، لكنه انصرف عن اتمامها وعن كتابة المقالات انفسية وتحول الى كتابة القصص القصيرة والطويلة (١) .

هذه المعطيات الثلاثة تصلح نقطة انطلاق لمثل هذا البحث ، وهي توضح في نفس الوقت مشروعيته . ان اصدار تلك الدراسات الفلسفية التي قام بها كاتبنا في شبابه تتردد على نحو خفي احيانا . وجلسي احيانا اخرى - في قصصه قبل النكسة . شخصية « الجنيدى »

(١) ، (١) : باختصار عن مقالة الاستاذ : صبري حافظ : نجيب محفوظ بين الدين والفلسفة ، الهلال فبراير ١٩٧٠ ، ص ١١٦ ، ص ١٢١ . وهذه المقالة عرض ممتاز لجهود نجيب محفوظ الفلسفية في شبابه .

(٢) المقصود مجموعة « تحت المظلة » ، والملاحظة المذكورة في ص ٢ منها .

السابقة يلقي اضاءا كاشفة افاد منها النقاد ليس في اقتناع القراء والدارسين بان هذه القصص متممة وعميقة المفزى فحسب وانما ساعدتهم ايضا على استقراء المضمون الفكري والنمط الاجتماعي الذي تمثله كل شخصية او ترمز اليه . اما اعمال الرحلة الجديدة وهي تتخذ اشكال المسرحيات ( او الحوارات ) والقصص القصيرة والقصص المتوسطة فتبتعد عن اسلوب استبطان الشخصية - الا في عدد قليل منها ، مثل « حكاية بلا بداية ولا نهاية » وعلى نحو مستمر - لتقوم على الحوار انعقلي الخشن اندي يغلو من روح الجمالة والفكاهة ومن الاهتمامات العادية للانسان العادي : وهذا ما يجعل تفسير هذه الشخصيات صعبا في كثير من الاحيان .

يقف نجيب محفوظ في قصصه الجديدة خارج الوعي العملي للانسان . أي - بعبارة اوضح - متجافيا لهوموم الانسان العابرة ، متمعقا في همومه الاساسية الكامنة خلف كل ارادة وشوق وفصل . ( لم يعد يهمني الفرد كفرد له خواصه في زمان معين ومكان محدد ، ولكني جعلت ابحث فيه عن « الانسان في موقف ما » (٣) وفي هذه الحالة فمن المتوقع ان تأتي قصصه غير مسلية ، انها بحث وتجريب ونقاش لمشكلات الانسان ، وهي - بعد - دراما ذهنية تدعوننا للتأمل واعادة النظر ومواجهة الالغاز الفلسفية ، ونادرا ما نتجح في اجتذاب تعاطفنا كما فعلت قصصه السابقة وعلى وجه اخص « اللص والكلاب » و « الطريق » و « السمان والخريف » .

وقد تشارك قصص هذه المرحلة ادب « اللامعقول » في سمة معينة : هي أن أغلبها ذو مناخ موحش تكتنفه انكابه والشاؤم والعنف، وتدخل فيه عناصر أخرى غير قابلة للتغفل لانها تند عن الخبرة الانسانية : كالصدفة ، والفوضى ، والموت الذي تصادفه بالجملة في الحلم والواقع : في الرغائب اللاداعية للشخصيات ، وفي الواقع الذي يتوق الى معناه عن طريق العقل ... لكن الحوار في هذه القصص يناى بها عن « تيار اللامعقول » اذ تراه يرتبط ارتباطا عضويا ومن الصعب أن نعثر فيه على فجوات مما يجعل هذه القصص قريبة من الحوارات الافلاطونية ، من هذه الناحية على الأقل . لكنها من ناحية أخرى تختلف عن الحوارات الفلسفية الخالصة بانها لا تخلو من فعل او حدث او تحول نفسي حاد .

وفي عصرنا الحديث اندي تحولت فيه الفلسفة - في بعض مدارسها على الأقل مثل الوجودية - الى الاهتمام بالانسان الشخص من حيث هو موجود فردي والاهتمام بخبراته الحية للوصول الى الدلالة العامة لوجوده وهمومه ومصيره ، نرى بعض الفلاسفة مثل سارتر وكامو ومارسيل قد اصطنعوا القصة والمسرحية لتوضيح او تجسيد افكارهم التي قدموها قبل ذلك او بعده على نحو تأملي في كتب فلسفية مستقلة . واغلب الدراسات الفلسفية التي تناولت الجوانب الفلسفية لهؤلاء المفكرين كانت تستعين - بشكل او باخر - باعمالهم الفنية ابتغاء توضيح منازع تفكيرهم (٤) . لكن مشكلتنا مع نجيب محفوظ انه ليس فيلسوفا بالمعنى الاصطلاحي المعروف وهو لم يدع ذلك . اما دراساته القديمة التي اشرنا اليها في البدء فهي دراسات اكايدمية متفرقة ولا تشكل نسقا متكاملما من الافكار ، كذلك من الصعب أن نتصور قارئاً ومفكراً مثابراً كنجيب لم ينخل عن كثير من افكاره اندي نشرها في عهد الشباب : فما صعوده عبر مراحل مختلفة من اشكال التعبير

وقد تشارك قصص هذه المرحلة ادب « اللامعقول » في سمة معينة : هي أن أغلبها ذو مناخ موحش تكتنفه انكابه والشاؤم والعنف، وتدخل فيه عناصر أخرى غير قابلة للتغفل لانها تند عن الخبرة الانسانية : كالصدفة ، والفوضى ، والموت الذي تصادفه بالجملة في الحلم والواقع : في الرغائب اللاداعية للشخصيات ، وفي الواقع الذي يتوق الى معناه عن طريق العقل ... لكن الحوار في هذه القصص يناى بها عن « تيار اللامعقول » اذ تراه يرتبط ارتباطا عضويا ومن الصعب أن نعثر فيه على فجوات مما يجعل هذه القصص قريبة من الحوارات الافلاطونية ، من هذه الناحية على الأقل . لكنها من ناحية أخرى تختلف عن الحوارات الفلسفية الخالصة بانها لا تخلو من فعل او حدث او تحول نفسي حاد .

وقد تشارك قصص هذه المرحلة ادب « اللامعقول » في سمة معينة : هي أن أغلبها ذو مناخ موحش تكتنفه انكابه والشاؤم والعنف، وتدخل فيه عناصر أخرى غير قابلة للتغفل لانها تند عن الخبرة الانسانية : كالصدفة ، والفوضى ، والموت الذي تصادفه بالجملة في الحلم والواقع : في الرغائب اللاداعية للشخصيات ، وفي الواقع الذي يتوق الى معناه عن طريق العقل ... لكن الحوار في هذه القصص يناى بها عن « تيار اللامعقول » اذ تراه يرتبط ارتباطا عضويا ومن الصعب أن نعثر فيه على فجوات مما يجعل هذه القصص قريبة من الحوارات الافلاطونية ، من هذه الناحية على الأقل . لكنها من ناحية أخرى تختلف عن الحوارات الفلسفية الخالصة بانها لا تخلو من فعل او حدث او تحول نفسي حاد .

وقد تشارك قصص هذه المرحلة ادب « اللامعقول » في سمة معينة : هي أن أغلبها ذو مناخ موحش تكتنفه انكابه والشاؤم والعنف، وتدخل فيه عناصر أخرى غير قابلة للتغفل لانها تند عن الخبرة الانسانية : كالصدفة ، والفوضى ، والموت الذي تصادفه بالجملة في الحلم والواقع : في الرغائب اللاداعية للشخصيات ، وفي الواقع الذي يتوق الى معناه عن طريق العقل ... لكن الحوار في هذه القصص يناى بها عن « تيار اللامعقول » اذ تراه يرتبط ارتباطا عضويا ومن الصعب أن نعثر فيه على فجوات مما يجعل هذه القصص قريبة من الحوارات الافلاطونية ، من هذه الناحية على الأقل . لكنها من ناحية أخرى تختلف عن الحوارات الفلسفية الخالصة بانها لا تخلو من فعل او حدث او تحول نفسي حاد .

وقد تشارك قصص هذه المرحلة ادب « اللامعقول » في سمة معينة : هي أن أغلبها ذو مناخ موحش تكتنفه انكابه والشاؤم والعنف، وتدخل فيه عناصر أخرى غير قابلة للتغفل لانها تند عن الخبرة الانسانية : كالصدفة ، والفوضى ، والموت الذي تصادفه بالجملة في الحلم والواقع : في الرغائب اللاداعية للشخصيات ، وفي الواقع الذي يتوق الى معناه عن طريق العقل ... لكن الحوار في هذه القصص يناى بها عن « تيار اللامعقول » اذ تراه يرتبط ارتباطا عضويا ومن الصعب أن نعثر فيه على فجوات مما يجعل هذه القصص قريبة من الحوارات الافلاطونية ، من هذه الناحية على الأقل . لكنها من ناحية أخرى تختلف عن الحوارات الفلسفية الخالصة بانها لا تخلو من فعل او حدث او تحول نفسي حاد .

وقد تشارك قصص هذه المرحلة ادب « اللامعقول » في سمة معينة : هي أن أغلبها ذو مناخ موحش تكتنفه انكابه والشاؤم والعنف، وتدخل فيه عناصر أخرى غير قابلة للتغفل لانها تند عن الخبرة الانسانية : كالصدفة ، والفوضى ، والموت الذي تصادفه بالجملة في الحلم والواقع : في الرغائب اللاداعية للشخصيات ، وفي الواقع الذي يتوق الى معناه عن طريق العقل ... لكن الحوار في هذه القصص يناى بها عن « تيار اللامعقول » اذ تراه يرتبط ارتباطا عضويا ومن الصعب أن نعثر فيه على فجوات مما يجعل هذه القصص قريبة من الحوارات الافلاطونية ، من هذه الناحية على الأقل . لكنها من ناحية أخرى تختلف عن الحوارات الفلسفية الخالصة بانها لا تخلو من فعل او حدث او تحول نفسي حاد .

وقد تشارك قصص هذه المرحلة ادب « اللامعقول » في سمة معينة : هي أن أغلبها ذو مناخ موحش تكتنفه انكابه والشاؤم والعنف، وتدخل فيه عناصر أخرى غير قابلة للتغفل لانها تند عن الخبرة الانسانية : كالصدفة ، والفوضى ، والموت الذي تصادفه بالجملة في الحلم والواقع : في الرغائب اللاداعية للشخصيات ، وفي الواقع الذي يتوق الى معناه عن طريق العقل ... لكن الحوار في هذه القصص يناى بها عن « تيار اللامعقول » اذ تراه يرتبط ارتباطا عضويا ومن الصعب أن نعثر فيه على فجوات مما يجعل هذه القصص قريبة من الحوارات الافلاطونية ، من هذه الناحية على الأقل . لكنها من ناحية أخرى تختلف عن الحوارات الفلسفية الخالصة بانها لا تخلو من فعل او حدث او تحول نفسي حاد .

وقد تشارك قصص هذه المرحلة ادب « اللامعقول » في سمة معينة : هي أن أغلبها ذو مناخ موحش تكتنفه انكابه والشاؤم والعنف، وتدخل فيه عناصر أخرى غير قابلة للتغفل لانها تند عن الخبرة الانسانية : كالصدفة ، والفوضى ، والموت الذي تصادفه بالجملة في الحلم والواقع : في الرغائب اللاداعية للشخصيات ، وفي الواقع الذي يتوق الى معناه عن طريق العقل ... لكن الحوار في هذه القصص يناى بها عن « تيار اللامعقول » اذ تراه يرتبط ارتباطا عضويا ومن الصعب أن نعثر فيه على فجوات مما يجعل هذه القصص قريبة من الحوارات الافلاطونية ، من هذه الناحية على الأقل . لكنها من ناحية أخرى تختلف عن الحوارات الفلسفية الخالصة بانها لا تخلو من فعل او حدث او تحول نفسي حاد .

وقد تشارك قصص هذه المرحلة ادب « اللامعقول » في سمة معينة : هي أن أغلبها ذو مناخ موحش تكتنفه انكابه والشاؤم والعنف، وتدخل فيه عناصر أخرى غير قابلة للتغفل لانها تند عن الخبرة الانسانية : كالصدفة ، والفوضى ، والموت الذي تصادفه بالجملة في الحلم والواقع : في الرغائب اللاداعية للشخصيات ، وفي الواقع الذي يتوق الى معناه عن طريق العقل ... لكن الحوار في هذه القصص يناى بها عن « تيار اللامعقول » اذ تراه يرتبط ارتباطا عضويا ومن الصعب أن نعثر فيه على فجوات مما يجعل هذه القصص قريبة من الحوارات الافلاطونية ، من هذه الناحية على الأقل . لكنها من ناحية أخرى تختلف عن الحوارات الفلسفية الخالصة بانها لا تخلو من فعل او حدث او تحول نفسي حاد .

وقد تشارك قصص هذه المرحلة ادب « اللامعقول » في سمة معينة : هي أن أغلبها ذو مناخ موحش تكتنفه انكابه والشاؤم والعنف، وتدخل فيه عناصر أخرى غير قابلة للتغفل لانها تند عن الخبرة الانسانية : كالصدفة ، والفوضى ، والموت الذي تصادفه بالجملة في الحلم والواقع : في الرغائب اللاداعية للشخصيات ، وفي الواقع الذي يتوق الى معناه عن طريق العقل ... لكن الحوار في هذه القصص يناى بها عن « تيار اللامعقول » اذ تراه يرتبط ارتباطا عضويا ومن الصعب أن نعثر فيه على فجوات مما يجعل هذه القصص قريبة من الحوارات الافلاطونية ، من هذه الناحية على الأقل . لكنها من ناحية أخرى تختلف عن الحوارات الفلسفية الخالصة بانها لا تخلو من فعل او حدث او تحول نفسي حاد .

## الإنسان في مواجهة الاستلاب

– تابع المنشور على الصفحة – ١٤ –

– من اين آتيت ؟ الا يشبه الظلام الذي آتيت منه  
الظلام الذي ستهذب اليه بعد عمر طويل ، وقد امكن  
أن يخرج من الظلام الاول حياة ، فما يمنع ان تستمر  
الحياة في الظلام الثاني ( ٧ ) .  
وهذا انحوار ، أو الجملة الاخيرة منه على الاصح ، تختصر  
احدى حجج افلاطون على خلود الروح الانسانية ( ٨ ) . وحتى في عبارات  
نجيب التي تبدو اكثر براءة أو ابتعادا عن الفلسفة نلمح « رؤى »  
ثيوصوفية ( فلسفية دينية ) رغبة كالعزاء الذي تبعته في النفس مرثاة  
شجيرة :

( .. وعند ذاك فرأ الشيخ سورة الفتح ، وعلقت  
المصابيح بجذع النخلة ، وهتف المنشد : يا آل مصر  
هنيئا فالحسين لكم .. ) ( ٩ ) .  
ومن الواضح ان للعبارة السابقة خلفيتها في القرآن وتراث  
الصوفية ، وفي رحلة رأس الحسين ابن علي من ديار الشام الى  
فسطاط مصر .

ان تلمش مثل هذه الشذرات ابتغاء تفسيرها واحالتها الى مظانها  
التراثية هو بالطبع بحث فلسفي ، وقد ينم عن براءة في البحث أو  
حذقة ، لكنه ، على أية حال ، ليس بحثا في مضمون القصة ودلالاتها  
الفلسفية ، لان اقتطاع مثل هذه الشذرات من سياقها هو افتئات  
على مضمون أوقف العام أو الموقف الكلي في القصة والذي هو « كل  
لا يتجزأ » وهو الذي يعطي تكل عنصر داخل في البناء الروائي وظيفته  
التعبيرية ودوره . واذن فليس امامنا الا طريقة واحدة اذا اردنا  
الوصول الى الابعاد الفلسفية لهذه القصص ، وهي : أن نتبصر في كل  
قصة مضمونها الاساسي ودلالاتها الفلسفية ، مرتكزين في كل ما نذهب  
اليه الى القصة ذاتها حتى لو اضطررنا الى تحوير أو توسيع بعض  
المفاهيم الفلسفية كي تنظم تلك الدلالة بدلا من ان نفرصها جاهزة  
على مضمون القصة .

– ٢ –

» في قصة « تحت المظلة » ( ١٠ ) تجري امام اعين نفر من الناس –  
اجتمعوا عرضا تحت مظلة – احداث غريبة : نص ملاحق ، يأخذ بعد  
الامسالك به يخطب في ملاحظيه ثم يرقص امامهم عاريا ، سيارتان تحترقان  
بركابهما ، رجل وامرأة يمارسان الحب عاريين تحت المطر ، رأس آدمي  
يتدرج بدمه على الرصيف .. تترى هذه الاحداث والمتفرجون تحت  
المظلة يتساءلون عن كنهها فلا يجدون جوابا مقنعا ، وهناك ، في الجهة  
الآخري من الشارع . شرطي يقف أيضا متفرجا على هذه الاحداث  
بلا مبالاة ، ويناديه احد المتفرجين تحت المظلة ليساله عن حقيقة

( ٧ ) من قصة « البارمان » – مجموعة « خمارة القطر الاسود » :  
ص ٤٦ .

( ٨ ) انظر محاوراة ( فيدون ) في كتاب « محاورات افلاطون » :  
ترجمة : د . د . زكي نجيب محمود ( ص ١٩٥ – ١٩٨ ) – لجنة التأليف  
والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٥٤ .

( ٩ ) من قصة « اللص والكلاب » : ص ٨٢ . والمثال الاكثر تعبيرا  
عن هذه الرؤية الثيوصوفية يتجلى في نهاية فصل « ادهم » من رواية  
« اولاد حارتنا » ، عندما يكون ادهم على فراش الموت ويدخل عليه  
« الجبلوي » معزيا وغافرا له ذنبه ..

( ١٠ ) القصة الاولى في مجموعة « تحت المظلة » : ص ١٦ ( طبعة  
مكتبة مصر ، وهذه الملاحظة تنطبق على الصفحات المذكورة في الهوامش  
الآخري ) .

هذه الامور الغريبة ، لكن الشرطي بدلا من ان يفسر الامر يسأل هؤلاء  
الناس – الذين اجتمعوا عرضا تحت المظلة – عن سر اجتماعهم وبقائهم  
هنا . فيقول احدهم : ( لا يعرف احدنا الآخر ) . ويجيب الشرطي :  
( كذبة لم تعد تجدي ) ثم يسدد نحوهم بندقيته ويطلق النار فيسقطون  
جثثا هامدة ( تتوسد الطوار تحت المطر ) .

كتب نجيب هذه القصة بعد حرب الايام الخمسة او الستة من  
حزيران سنة ١٩٦٧ ، وتلك الحرب – كما هو معروف – كانت غريبة  
في مدتها واصواتها ونتيجتها ، مثلما هي الاحداث في هذه القصة .  
اما الشرطي في هذه القصة ( مثلما هو في « اللص والكلاب » وفي  
« حنظل والصكري » وغيرهما ) فهو رمز تقوية « السلطة » ولظهورها  
القمعي . انه حارس نظامها والمدافع عن وجودها . وليس من الصعب  
بعد ذلك ان ترى في القصة نقدا بارعا وعنيفا للسلطة او « الانظمة »  
التي سمحت للفاجعة ( أو النكسة ) بأن تكون وعلى تلك الصورة التي  
حدثت بها . وليس هناك من نقد أبلغ : فان نظام يقتل كل من تسول له  
نفسه التساؤل عن جلية الامر ( ١١ ) . في هذه القصة نعثر على نموذج  
يوضح لنا مفهوما فلسفيا سيكرر ذكره في هذه المقالة الا وهو : استلاب  
الذات Sey - alianation ، ذلك النموذج هو الشرطي الذي يتخلى  
عن بعده الانساني ليتحول في بزئه الرسمية الى أداة لتقمع . وبعد  
ذلك سيكون واضحا اذا قلنا : أن الانسان المستلب هو الانسان الاداة ،  
او ( هو اندي يختلف في حقيقة امره ووجوده عن حقيقة ماهيته  
أو طبيعته الاساسية ، او هو الانسان اندي يتعارض وجوده الفعلي  
مع ماهيته الانسانية . ) ( ١٢ ) ، فمعنى الاستلاب ان يتوقف على  
تصورنا لماهية الإنسان ، فاذا تصورناه على انه غاية في ذاته فان  
الانسان كذات حرة مبدعة تكتشف امكانياتها من خلال فعلها وممارستها  
لهو انسان مفترب عن ذاته ( او مستلب الذات ) . واذا تصورنا  
الانسان كذات حرة مبدعة تكتشف انكانياتها من خلال فعلها وممارستها  
فان الانسان الفعلي اندي يتخلى عن حريته ولا يمارس الابداع والخلق  
( مهما كان نوعه ) ولاي سبب كان فهو انسان مستلب الذات . واذا  
تصورنا الانسان على انه يتميز عن احيوان بانه صاحب هدف « او  
« رسالة » او « مهمة » عليه ان يقوم بها فان الانسان الفعلي الذي يعيش  
وجودا هامشيا بلا « هدف » او « مهمة » لهو انسان مستلب الذات  
ايضا .

استلاب الذات ، بهذا المعنى الواسع ، هو احد المواضيع الملحة  
التي يشف عنها نسيج عدة قصص من نتاج نجيب محفوظ في هذه  
المرحلة . ومن خلال نماذج من هذه القصص سنتعرف على عدة انماط  
للانسان المستلب . ففي « آهه » ( ١٣ ) ، وهي مسرحية او محاوراة ،  
يقدم لنا الكاتب فتى تستقره شؤبه الخاصة ، تعرف من حوار المسرحية  
انه قضى يومه متسكما بلا هدف : مر بميدان اقلعة صباها ، حيث

( ١١ ) يفترض في عمل الناقد ان يكون تقويما وتوضيحا للعمل  
الفني ، لكنه ينقلب احيانا – عن قصد او غير قصد – الى نوع من  
التمعية Mystication ومثال ذلك ما يقونه الاستاذ غالي شكري  
( في كتابه : المنتمي : دراسة في ادب نجيب محفوظ ، دار المعارف  
طبعة : ٢ ، ص ٤٤٦ ) عن هذه القصة : ( في هذه القصة العظيمة  
تحت المظلة اودع نجيب محفوظ كلمته الاخيرة في كل شيء .. في  
التاريخ والحضارة والثورة ) . فالولا لم تكن هذه كلمة نجيب محفوظ  
الاخيرة فقد كتب قصصا بعدها ولا زال يكتب ، وثانيا ليس هنالك  
ما يدل على انها كلمة ( اولي او اخيرة ) في الثورة والتاريخ والحضارة .  
ان هذا التقرير غير مبرر .

12 - G . Petrouic : Alianaion , Ency , of Philosophy  
Vol .. I , P , 19 Macmilan , New York et London  
1967

( ١٢ ) المسرحية الاخيرة في مجموعة « تحت المظلة » ، ص :

زلت قدمه فوق على ركبته لكنه لم يكثر لذلك ، وتناول فطورا عاديا بشارع محمد علي ، ثم انتقل إلى مقهى الشمس ، وشهد بعد ذلك مزادا ومر بعيادة طبيب .. أنه يعيش منزولا عن الآخرين ، الا انه الآن وفي بدء المسرحية ينتظر فتاة على هضبة صخرية في الخلاء. الوقت يقارب الغروب . يحس هذا الفتى ان رجلا في الخمسين من عمره يتابعه منذ الصباح وهو الآن يقف قريبا منه . يدور بينهما نقاش فنعرف ان الرجل ( يحب الناس .. ويتصيد لحظة للتعارف بهم ، ولكن انانية الناس وحماقتهم تقف سدا في وجهه ) يضيق الفتى به ، لانه يفسد عليه خلوته بفنايه التي سرعان ما تأتي ونضيق بالوقوف كله فتترك فتاتها وتذهب ، ويبقى الشاب فيعرض عليه الرجل ان يشهدا الغروب معا ثم يذهب الى حانة ، لكن الشاب يرفض هذا العرض وعندما بهم بمغادرة المكان يقع على رجله المصابة ولا يستطيع النهوض ، يطلب المساعدة من الرجل ويعرض عليه صداقته مقابل ذلك . تكن الرجل يرفض اصطفايا صداقته تحت وطأة الظرف ويشتركة ليل والالم . ويأتي بعد ذلك رجلان يرتدي كل منهما لباسا احمر ويحمل مشعلا ويقفان الى جانب الشاب ثم آخران بلباس اسود ويحمل كل منهما سوطا وحبالا معقودا ، فيوثقان رجله ويبدأن بحماكته في جو من التائب والعذاب . يطلب الشاب الرحمة وانامل فلا يلقي الا الهزة . وبهيمانه ان ذنبه لا يفتقر : لقد نسي « المهمة » التي ارسل من اجلها ؟ المهمة ؟ يتذكر الشاب تدريجيا انه فعلا مكلف بمهمة . فيعتمد عن تسيانه لها بان ( الزحام شديد .. يشتت الذاكرة ) .. وعملي اليومى استغرق جل وقتي ) . ويجيب الرجلان بان مثل هذا العذر غير مقبول لانه كان يجب ان يتذكر مهمته من خلال الاشياء التي صادفها : ( الم يوح لك المطعم بشيء ؟ ولا المقهى ؟ ولا دار الآثار . ولا صلاة المزداد ، ولا عيادة الطبيب ؟ ) .

ذلك وجه من اوجه مأساة الانسان المستلب : ينسى « مهمته » في حياته القصيرة ، وسط الزحام ( الذي يشتت الذاكرة ) ، ويتجاهل « الآخرين » الذين كتب عليه ان يتواصل معهم كي يتعرف من خلال روابطه بهم وبالاشياء الأخرى على مهمته التي بها فقط يحقق ذاته . انه يتجاهل الآخرين لانه لا يعترف « بالمطاء » ، ومن ثم فهو لا يتوقع « الاخذ » الا في ظروف انقهر والاضطرار . المستلب كما نراه في هذه القصة مشغول في تحقيق التوافق مع طبعه الخاص ، امسا الآخرون ( والاشياء ) فهم مجرد زحام « لا يعني شيئا . ان « الاشياء بالنسبة للمستلب تفقد قدرتها على التنبيه والاستشارة ، ومن ثم فهو عاجز عن الانتفاع باللباسات العارضة في اشروع يعمل ارادي مقصود . انه لا يستشعر في نفسه مثل هذا الاحتياج الروحي للعمل والخلق . ويرجع ابتعاد الانسان المستلب عن مهمته الى « النسيان » أو «التناسي» المفروس في طبيعة الكائن الانساني .. هذا ما توحى به المحاوره ، اما عن نوعية الظروف الاجتماعية او التاريخية التي تفرض مثل هذا النسيان وتفرسه عميقا في النفس فلا تحدثنا شيئا . لانها تتجنب منذ البدء ناحية المتناهيين وتتجاهل البنية الاجتماعية ، وهي بذلك تنأى بنا عن المفهوم الحديث للذات المستلبة وتحيلنا الى افلاطون ودعواه القديمة : كانت نفس الانسان تعيش في عالم الخير والجمال مع الالهة ، ثم حلت في الجسد فالقى بسبب رغائيه الدائمة غشاوة الظلام امام بصيرتها فتنسى الخير والجمال وسائر « المثل » ، لكنها تتذكر ، وعن طريق التأمل تصعد من الجميل في الحياة الدنيا الى الجمال والخير في اسمى وجود لهما مع الالهة حيث كانت قبل ان تحل في الجسد . تلك الدعوى الافلاطونية اثرت في فلاسفة المسلمين . فابن سينا يشبه النفس - في قصيدته العينية الشهيرة - بحمامة نزلت الى الارض كارهة تظل تبكي ديارها الاصلية شوقا وحنينا اليها ، وفي قصة رمزية له ( هي « رسالة الطير » ) نرى الطيور تمر برحلة

فاسية ليخلصها « الملك الرحيم » من حيائل الصيادين . ومفدى تلك الرسالة ان موقف الانسان في هذه الحياة هو موقف السجين ، وهو محتاج الى تخليص نفسه من الاسر بواسطة « الحكمة » مستعينا في ذلك بن عانى نفس الموقوف قبله (١٤) . ويبدو لنا ان نجيب محفوظ يحتزن هذه الرؤية « انسينوية » بثوبها الرمزي ليفدمها على لسان ( حامل المشعل ) الذي يقول مخاطبا الفتى في ختام محاوره « المهمة » : « لم تكن اسراب الطيور المهاجرة الى اعشاشها التي تركتها في الجبل » .

كذلك فان مبنى هذه القصة يحيلنا الى التراث الديني ، فحاملا المشعلين وحاملا السوطين الذين يقومون بحماكة الشاب ، يذكرنا بملانكة « العذاب .. والحساب الذين يقومون بحماكة الشباب ، يذكرنا عندما يحل في القبر اول مرة ( حسب ما ورد في بعض الاحاديث النبوية ) ، وهذا ما يزيد في وطأة الخوف الفاجع من الموت في وجدان الانسان المسلم .

ان الانسان لا ينسى غايته أو « مهمته » بتعبير نجيب محفوظ وانما ينسى ايضا « اصله » : من اين أتى ؟ وبالطبع فان هذا السؤال يستتبع سؤالا اول في المهمة » : ولم أتى ؟ انهما وجهان لمشكلة واحدة : وجود الانسان في هذا العالم . ان نسيان او تناسي الانسان « لاصله » هو موضوع قصة « الرجل الذي فقد ذاكرته مرتين » (١٥) . وهي تتدرج في بنائها لتصور لنا مبررات هذا النسيان . محور هذه القصة رجل فاقد الذاكرة ( يحس بأنه لا شيء ينحدر من لا شيء وماض الى لا شيء ) ، انه - بتعبير عامي - يبدأ من نقطة الصفر ، وسيتهي اليها كما سترى في نهاية القصة وهذا ما يجعل الشعور بعدمية الحياة - في بعض قصص نجيب محفوظ - اقوى من المجابهة الحقة للسئلة الجديدة التي يصدر عنها . نبدأ مع هذا الرجل وهو جالس هناك في حديقة فندق ميمم والوقت ليل . ( انه يستقبل الهواء الجاف المنعش الهابط من الجبل فيما وراء الخلاء ) . وهو لا يعرف لذاته ( اصلا ولا هوية ولا اسما ) .. ( وجدت نفسي في الخلاء ، الجبل ورائي ، ومبنى وحيد امامي هو الفندق ، لم اجرؤ على التوغل في المدينة فسللت الى حديقة الفندق ) وما يلزمه بصفة عاجلة هو الماوى وهو الى هذا يتشبه ابنة صاحب الفندق التي يراها اثناء تناولها العشاء في الحديقة : ( ما أجمل ان يحوز الانسان فتاة حسناء مثلها .. هكذا قال لنفسه بنبرة منتشبة ) . ونحن مع الفتى بعد ايام من سكناه بالفندق ، لم يعرف ذاته او اصله بعد لكنه يرتبط مع صاحب الفندق وابنته برباط المودة . والفتاة تمتعه العزاء والحنن معا على شكل تشجيع : ( ستعرف نفسك عاجلا او آجلا ) ، ويطلب يد الفتاة فيتردد والدها اول الامر لكن الفتاة تبدو رافية فيه وتقول له ( لا يهمني ان تهتدي الى ماضيك أو يهتدي ماضيك اليك ) . انه يعيش نشوة الحب والقلق معا ، وعندما يتزوج من فتاته ويصبح شريكا في الفندق يتناقض هذا القلق شيئا فشيئا ( فالبحت عن المجهول من ذاته لا يكاد يخطر بباله الا اذا انفرد بنفسه ) وزوجته - على أية حال - لا تتيح له هذه الفرصة كثيرا .

ويكتسح الكساد الفندق بعد مدة . ان الامان الزائف الذي اتخذها صاحبنا « جبل نجا » ووجد فيه نوعا من السلوان يتداعى الآن . ولا يعود الفندق او الحب رابطة تربطه بزوجته وانما الاولاد

(١٤) انظر هذه القصة ، موجزة ، في كتاب ت.ج. دي سور : تاريخ الفلسفة في الاسلام . ( طبعة ٤ ، سنة ١٩٥٧ ) . - لجنة التأليف والترجمة والنشر . والقصة يوردها المترجم .. د. محمد عبدالهادي ابو ريدة . في تعليقه : ص ٢٨٩ - ٢٩٢ .  
(١٥) القصة الرابعة من مجموعة « حكاية بلا بداية ولا نهاية » : ص ٢٥٥ - ٢٤٢ .

قصته « العالم الآخر ١٧ . نمطا آخر من انماط الإنسان المستلب طالب يتحول الى « تابع » في دار للعبادة ؛ وبهذا التحول يعتقد انه ( ولج ابواب الجنة .. حيث يتقرر المصير بقوة الرأس ، ويتخذ المركز التالي بالجرأة .. ولا زيف على الإطلاق ) . ونعرف انه هازبا من الاضطهاد السياسي ، فهناك ( الطاغية يحكم والشرطة تجلد ، والانجليز يتربعون فوق الرؤوس ) . وهو يسخر على الدوام من حكمة الناس واخلاقهم في « العالم الآخر » ويؤمن بالعنف اسلوبا للحياة .. اتحياة التي ( لا يمكن مواجهتها بقلب كالملمن ) . ويصور نجيب مأساة هذا « التابع » من خلال تجربة محددة بعيدا عن التجريد والرموز كما هي الحال في القصص التي عرضنا لها سابقا . فالزمان والزمان محددان في هذه القصة ( او على الاقل نستطيع الوصول اليهما من خلال الحوار ) اما اتحوار فيها فيرتش بالفارقات المضحكة المؤسفة والبراءة والشعر والشجن . يأتي الى الدرب الذي يقوم فيه الماخور طالب ريفي جاد ، داعيا للاضراب في غد بمناسبة مرور سنة على الفاء دستور الامة فلا يلقى الا السخرية من المعلمة صاحبة الدار وتابعها . لكن « التابع » عندما يتعرف على الطالب بوصفه زميلا قديما في الدراسة يدعوه للجلوس ، ثم يدعو الى معايشة بقي راقصة . وكانت البغي هذه مريضة ( تخوض ومدها معركة مجهولة مع مرض القلب بلا نصير وبلا استجداء ) ، جلست الى جانب الشاب الخجول ، ولانه ذكرها بطفائها بكت . فيضربها « التابع » بوحشية : ( فلا وقت للمكاء ، واي ضعف يعترينا هنا يعني هلاكنا ) ، وتشد توبة القلب على البغي فتتأوه بعق وتلقي برأسها على الكرسي ، وعندما يقترب منها التابع ويجس نبضها يعلن انها ماتت ، وينقلها الى غرفة داخلية ، ثم يسود ويجلس بجانب اتشاب بانتظار معركة متوقفة مع « فتوة اتحارة » . انه يحس - الان - ان لا مناص من خوض هذه المعركة التي كثيرا ماتجنبها . ورغم انه يعرف ان للفتوة اعوانا اشداء - بينما هو وحيد - فانه ينتظر المعركة ، ويسالنه الشاب :

( - كيف تنتظر الموت بهذا الهدوء كله ؟

- عندما ماتت حل بي تشاؤم غريب .

- لم يد عليك شيء قط .

- لا يجوز في عملي ان يبدو على الوجه شيء

- يخيل الي انك تتكلم بحزن لأول مرة

صمت التابع مليا ثم قال بنبرة اعتراف :

كانت حبيبتي الوحيدة في الدنيا .. وبها اصطلت نجاحي في هذا الدرب ) .

في نبرة الاعتراف هذه تتكشف لنا اعماق مأساة الإنسان المستلب وتناقضه : نعم له حبيبة ، لكنه تاجر بجسدها ويتخذها وسيلة للصعود . يهرب من العنف في العالم الاخر ليواجهه على شكل اخرفي عالم المواخر . يهرب من القمع ليواجه الموت . ليتغلى عن كرامته - منذ اختار هذه المهنة - لكنه لا يستطيع الهرب من الموت بسبب الكرامة . واذا استقرنا تعبيرا شعريا من عبدالوهاب البياتي قلنا : ان الانسان المستلب هذا ( يعيش بالجان ويموت بالجان ) انه انسان بلا قضية ، ويندفع الى « الموت المجاني » لان وشائجه بالحياة العفصة مبتوتة اصلا ، والموت الذي يندفع اليه « موت جسدي » ، اما « الموت المعنوي او الروحي » فقد حل به منذ بدأ حياته المضطربة متسلحا بمنطق الصفاقة . ان اكتشاف تناقض هذا النمط المستلب يقتصر في هذه القصة بادانته اخلاقيا وروحيا :

- كانت حبيبتي الوحيدة في الدنيا .. وبها اصطلت نجاحي في

هذا الدرب .

ومستقبلهم . انه يكافح من اجلهم ويحارب في كل ميدان متناسبا مشكلته الاولى . يحارب الذين ( يعملون للاستيلاء على قنطقه وامراته ) حتى لم يعد ( لديه وقت ليحب امراته ) . وتحت وطأة الظسوروف الواقعية التي تستنزما حياة البشر يتحول اهتمام صاحبنا عن الحب الذي شكل له ذاكرة بديلة الى شروط ذلك الحب ( الطعام والامن ) ولكنه بهذا يتعد اكثر عن التفكير في أصله . ومع مرور الزمن يعم في هذا الابتعاد اكثر فاكتر ، اذ يصبح هو واسرته ( محاصرين بالجوع والموت ) ؛ وشروط حياته تفرض عليه ان يواجه العنف من الاعداء ، فيحدث ولده القادم في اجازة من دراسته الجامعية قائلا : ( في شمار ذلك النزاع الاليم فقدنا اخويك العزيزين .. لقد ورطنا النزاع في اعمال عنف لم تجر لنا على بال ) . ويمنيه ابنه بالعلم : ( اذا صبرنا بضع سنوات يمكنني اعادة بناء الفندق بلا تكاليف .. ذلك هو موضوع رسالتي ) والزوجة تأمل ، لكن الاب يتردد . في تصديق هذا الوعد . وتحس الزوجة ، بعد ذلك ان زوجها يفكر بالهرب ، فتكشف لسه - لأول مرة - انه كان زوجها قبل ان يفقد ذاكرته ، وقد هرب مرسع راقصة ثم عاد الى الفندق على الصورة التي بدانا بها ، واعيد الى حظيرة الاسرة بتلك التمثيلية المثقنة التي شارك فيها صاحب الفندق ابنته . هنا يستسلم الرجل للنسيان تماما ، ويرى ان ليس له الا انتظار الابن الذي وعد ان ينقذ الاسرة من الجوع والعنف ويسير بها - يعلمه - الى شط السعادة . ومع الانتظار ( يظل العنف يتراكم كالجبال ) ومن خلال القصة التي حكنتها الزوجة يعتقد الرجل انه عرف ذاته . لكنه بهذا يكون قد نسي « اصله » او « ذاته الاولى » تماما ، فلا وقت لديه ليفكر فيها ، والامل يفتتته يشبه المعجزة ،

هكذا الامر اذن : عندما يحس الانسان المستلب بازمته يلجأ الى الحب . وقد يكون الحب احيانا طريقا للقضاء على استلاب الذات الانسانية . لكن هذه القصة تقول لنا ان الحب في جانبسه البيولوجي ( الزواج فالانجاب ) وما يتبع ذلك من مكايده لتأمين البقاء ) يجعل الانسان ممعنا في استلابه : فهو من ناحية يجعله يلجأ الى العنف والقتل ويتلقاهما كشرط لاستمرارية البقاء وهو من ناحية اخرى يجمع اشواق التساؤل والتبحث في نفس المستلب شيئا فشيئا ، والتشيجة هي ان الانسان يتحول الى انسان « احادي البعد » هدفه الوحيد تحقيق الامن الزائف لنفسه ، ويقبل حتى في تحقيق مثل هذا الامن ، والاهم من ذلك يفشل في ان يكون ذاته . ويبدو لنا ان تصور نجيب محفوظ لمأساة الانسان المستلب يتعد عن المفهوم الوجودي والمفهوم الماركسي للاستلاب على السواء . فهناك فرضية مسيطرة نلمحها في كل نثايا القصة ( خصوصا في اتحوار المتسر الذي يدور بين شخصيتين غامضتين يتأبعان تطور حياة البطل من سوق الجبل ) ومؤدى هذه الفرضية ان للانسان ماهية اصلية وبعدا روحيا . والقسم الاول من هذه الدعوى ترفضه الوجودية ( هيدجر وسارتر ) والقسم الثاني ترفضه الماركسية (١٦) . ومن الواضح ان ما نتطق به قصتنا السابقة هو ان الانسان يضطر لالفاء ماهيته وبعده الروحي بسبب القسر الاجتماعي وضغوط الحياة المستمرة .

وعلى نحو اوضح تجسيدا ، يقدم لنا نجيب محفوظ فسي

(١٦) يقدم Milan Rucha الاستاذ بمعهد الفلسفة فسي اكااديمية براغ للعلوم .. ) فصحا نقديا لمفهوم « الاستلاب » لسدى الوجودية والماركسية في مقالته :

Marxim and the exéstential problem of mon

وهي مثبتة في كتاب

Socialists Humanism , Ed , Erich Fromm , P P . 138

Allen Lane the Penguin Press , London , 1967

اما « عبدالواحد » فهو انسان يؤمن بقدره العقل على اثبات الالتزام : ( بالاستقراء والقياس نعرف ما يجب عمله .. تق اننا سنعرف المهمة .. لقد انقطع ما بيننا وبين التنظيم ، ولئن زالت عنا ولايته فقد وهبنا الحرية .. انها حرية جديدة غير عابثة ) ، حرية تلزم بالمهمة ( لا تهرب منها ولا تنكرها ، فبدونها تصحى الحياة لا شهية .. بها اكتسب وظيفتي في الحياة وبغيرها لا يبقى لي الا العدم ، ولقد اعتدنا ان نسلم بالمهمة على ثقتنا بالزعيم ، ولكن ليس ثمة فارق كبير ان تقوم بالمهمة لذاتها وبين ان تقوم بها لحساب زعيم مجهول .. اليس هو يقترح المهمة بعقله ؟ حسن ، فلم نتصور ان عقله فوق جميع العقول .. فاذا انقطعت الصلة بيننا وبينه فما علينا الا ان نفكر ) .

لكن « عبدالقوي » متعلق باذبال الحياة : ( انجاز المهمة قد يكلفنا حياتنا ) فيجيبه « عبدالواحد » ( علينا ان نتخار على ضوء احترامنا لانفسنا ) . وتأتي بعد ذلك طائرة « هليكوپتر » وتهبط قريبا منهما وينزل منها زميلهما في التنظيم : « نوح » . انه صامت مبهم ، يقدم لهما ملابس جديدة وبلهجة امره يخبرهما انه سيبتنظرهما في الطائرة ثلث ساعة فقط . « عبدالقوي » هنا ، يحاول ان يفتح صاحبه بركوب الطائرة والتسليم لمحاكمة التنظيم او الهرب وليس من حل ثالث . اما عبدالواحد فيرى ان كلا الحليين استلاب لذاته ، فهو يعيش - رغم مأساته - « صحوة الذات » لأول مرة في حياته : ( لقد عايش في هذا الغلاء جواً جديداً ، وسلمت نفسي لمنطق جديد ، وهيات ارادتي لحياة جديدة .. لن اطق بعد اليوم ان اكون آلة صماء .. ساعيد الرحلة من جديد بدءا من المدينة ولكن بعقل متفتح لا يقادر كبيرة ولا صغيرة ، وفي الجنوب سنتبثق المهمة من صميم رأسي لا من مطروف مطلق .. لقد جاءت الطائرة من تلك الناحية ، فهناك يقع الشمال ، وبالتالي عرفت الجهات الاصلية ) . لقد عرف نقطة البدء . وهكذا ينفصل عن زميله بعد وداع قصير : اما « عبد القوي » فيمضي الى الطائرة ليسلم نفسه للتنظيم مرة اخرى ، واما « عبدالواحد » فيشرع من جديد بالبحث عن مهمته .

من التمازى الواضح بين شخصيتي هذه القصة تقع على نمط اخر من انماط الانسان المستلب ( عبدالقوي ) ، وفي نفس الوقت نشر على نمط جديد ونادر في اعمال نجيب محفوظ الاخيرة والقديمة : انه نمط الانسان السلب الذي يصود الى ذاته الملفة ويقضي بذلك على استلابه . وتفحص هذين النمطين خارج اطار القصة وداخلها يتبع لنا كشف مرامي نجيب محفوظ الانسانية والاخلاقية . فالانسان المستلب هنا هو ( الانسان الاداة ) ، اهو ج مندفع الى اللذات العابرة ، يتنرد لكن تمرده انفعالي مؤقت . يعتمد على ( احساسه الباطني ) ويرفض المحاكمة العقلية . انه ( ابن الساعة التي هو فيها ) كما يقول عبدالقوي عن نفسه ، واهم سماته انه يهرب من ذاته باستمرار رغم وعيه بمأساته ، ويظل سالكا طريق سق الهرب حتى حينما يسلم نفسه للتنظيم مرة اخرى .

اما الانسان الذي يريد استرجاع ذاته المستلبة وحرية الملفة ( عبدالواحد ) فيؤمن بقدرته الذاتية وقدره عقله على تحصيل المعطيات واستنباط النتائج منها والوصول الى دوره التحق في صنعها او تغييرها . انه يرى في الاماعات والملابس المعارضة نداء ودعوة : فزميله هو الذي ادرك ضرورة رفض الآلية التي تحولا اليها : ( كان علينا ان نرفض ان نكون مجرد آلات ) ، لكن الذي يرفض فعلا - وهنا المفارقة - ليس هو الذي يدرك انه آلة فحسب . وانما هو ( عبدالواحد ) الذي يعي ويريد في الوقت نفسه . فالتحام الإرادة بالوعي ( ومن ثم بالفعل ) هما طريق الخلاص من الاستلاب وهذا ما يفعله « عبدالواحد » في خاتمة الطواف . وهنا نلمح في شخصية

في قصة « موقف وداع » ( ١٨ ) ( وأعله من الانسب ان يجصل الكتاب « المهمة » عنوانا لها لولا انه استعمل هذا الاسم عنوانا لمحاورة سابقة ) .. نلتقي « بالمهمة » و« النسيان » مرة ثالثة . شخصان يفيتان من نومهما ليحدا نفسيهما في الغلاء ، عاريين ، وبلا ذاكرة ولا شيء اخر ، ويشعران « بحاجة ملحة لمقاومة النسيان او الذبول :

( - علينا ان نقاوم الذبول والا ذبنا في الغلاء .

- وهو خلاء صامت لن يجيب بحرف ولو سئل الف سؤال ) .

وما دام الغلاء صامتا فلا بد من شحذ الذاكرة الهاجمة لاسترجاعها عن طريق الحوار . ويبتديان في البدء اتي اسميهما : عبدالقوي ، عبدالواحد . ثم الى انهما صديقان فعلا . ثم يتذاكران فيتذكران انهما كانا ماضيين في طريق زراعي فانقض عليهما قطاع الطرق .. وقبل ذلك ؟ يتذكران انهما كانا في ضيافة رجل بدوي .. وهكذا يمضيان في استرجاع الذاكرة الضائعة من السبب القريب السبب السبب البعيد فالابعد ، على طريقة « حي بن يقظان » ( ١٩ ) في رحلته العرفانية مع انفارق : هنا انسان يتحاوران ويتناقشان اما « حي » فقد كان يعاور الاشياء من حوله .. كانا اذن في ضيافة رجل بدوي . وقبل ذلك ؟ يتذكران انهما كانا يجلسان في « استراحة » حيث لمبا القمار مع جماعة من الرواد هناك ثم تشاجرا مهم . وقبل ذلك؟ يتذكران انهما كانا في ملهى الزهرة بالمدينة وخاضا معركة مع بعض زبائنه عندما استائرا براقصه الملهى . انهما اذن في رحلة ماجنة يبدو فيها « عبدالقوي » انسانا يسمى وراء اللذات من غير تقدير للعواقب ، بينما زميله « عبدالواحد » وان كان يتابعه في عيشه ومجونه مضطرا بسبب الوحدة الا انه كما يبدو من الحوار انسان مترو يفمره التدم . وفي خضم محاولتهما استرجاع الذاكرة على هذا النحو يقصان على الذكري الالهة والابعد : انهما مكلفان بانجاز مهمة ، اذ هما عضوان في تنظيم سري . وما هي هذه المهمة : لا يعرفان عنها شيئا لانها كانت مدونة على ورقة في مطروف مطلق سلمه لهما رئيسهما وامرهما الا يفتحاها الا عندما يصلون منطقة معينة في الجنوب .

انهما اذن بعيدان عن العمران ، وبلا ملابس او نقود ، وبلا مهمة .. ويخلصان الى انهما ايضا مطاردان من الشرطة والتنظيم على السواء . فما العمل ؟ هكذا يدخل النقاش بينهما مرحلة جديدة : يقول « عبدالقوي » : ( نحن الذين نقوم بالفامرة ومن حقنا ان نعرف .. « المهمة المدونة » .. كان علينا ان نرفض ان نكون مجرد آلات ) . ان « عبدالقوي » يعي مأساته : ان هو الا آلة في يد تنظيم . لكنه « وعي » عابر يفقد التأثير الفعلي . فهو اي عبدالقوي يقول بعد قليل : ( لقد خسرنا اللعبة ، ومن حقنا ان نتعلق باذبال الحياة باي ثمن ! ) انه يعي كونه « أداة » ومع هذا فهو يريد الحياة باي ثمن ولو بشرائه مطروف جديد من الرئيس . الانسان المستلب - كما قلنا سابقا - متناقض ، انه عبد لاهوائه واوائانه ، فهو يقول لصاحبه : ( هلم نهرب .. نحن مطاردون ، وسنظل مطاردين ، وخير لنا ان نهب حياتنا للمغامرات الشائمة ) .

( ١٨ ) القصة الخامسة من مجموعة « شهر الصل » : ص ١٥١-١٨٤

( ١٩ ) اذكر انسي حضرت ندوة لنجيب محفوظ - بمناسبة اسبوع الكتاب العربي .. في « معرض الجزيرة » في اواخر عام ١٩٦٢ - ومما قاله فيها جوابا على احد السائلين : ان « حي بن يقظان » - لابن طفيل هي اروع قصة عالية بالنسبة لعصرها .

كل شيء) وان للتاريخ انفسا تحترق حزنا على ابنائه المعذبين بالانكسار . وفي نهاية المسرحية نكتشف انه تاريخ يصحو ويدافع عن حشاشته فيقاتل الى جانب الفتى الذي امر على الدفاع عن ( ينابيع الحياة انيقة ) . انه تاريخ ميت او ثاو بلا مبالاة ، لكنه تاريخ حي نائر اذا اراد الفتيان مواجهة التحدي الكبير .

— { —

الى هنا نكون قد استوضحنا من اعمال نجيب محفوظ التي كتبها بعد النكسة خمس قصص ومسرحيتين قصيرتين عن معضلة الانسان المستلب ، في نسيانه لمهته وفي بحثه عنها ، في تخليه عن ذاته ومحاولته استرجاعها . واذا اردنا تشكيل صورة شمولية تنتظم كل انماط الذات المستلبة التي توصلنا اليها من خلال فحوصنا لشخصيات القصص السابقة قلنا : ان الانسان المستلب على تباين انماطه في تلك القصص هو انسان احادي البعد : يهتم كل الاهتمام بتكليف حياته وتحقيق احتياجاته اليومية . ومهما يكن عمله - شرطيا كان ام « تابعا » ام عضوا في تنظيم سياسي - فهو « الانسان الاداة » ؟ انه في واقع حقيقته « وسيلة » او « شيء » وليس « ذاتا انسانية » . انه انسان هارب من ذاته ، او من مجتمعه او من مهمته الحقة . انه لا يؤمن بقدرته الذاتية فهو عاجز عن المبادرة في وجه التحديات . . . لانه قد تخلى عن حريته وفقد الايمان بقدرته على التغيير والخلق . انه صاحب منطق خاص ، منطق متناقض يخضع للنزوات والاهواء ، او يتمشى مع القسر وضغط الظروف الخارجية على درب واحد . ان الانسان المستلب لا يؤمن بشيء ، وان آمن ببعض القيم فيظل هذا الايمان عرضة للاهتزاز والنسيان او عرضة للمساومة فالنتازل في ظروف الشدة والامتحان .

واذا قلنا هذه الصورة - مع اخذ شخصيتي « عبدالواحد » و« الفتى » ( ٢٢ ) ، بالاعتبار - نصل الى مفهوم نجيب محفوظ الانسان الحقيقي : انه الانسان المتحرر من سطوة الاستلاب ، انسان الحقيقة والارادة والفعل . . انه الانسان الذي يفي ذاته ولا يتخلى عن مسؤوليته ، وهو سيد مصيره : يرى - من غير قسر خارجي - ان التمسك بالحرية والالتزام اجدر به من توخي الامن المزيف في ظل الخوف . انه يختار لكن على ضوء محاكمة العقل ونقده لا على اساس ما توحى به الاهواء . لا يستسلم للياس والتعب وانما يواجه التحدي بكل ما فيه من قوة العقل والجسم . انه انسان « متجذّر » في التاريخ ، يجد فيه ما يضيء له حقيقته كفرد ومسؤوليته كعضو في مجتمع . وهو بهذا يضيء على التاريخ معنى واتجاها . انه انسان واقعي ( اي يجابه واقعا من خلال معطيات الواقع ذاته ) لكنه لا يتنازل عن ( اشواق القلب الخالدة ) ، فهو « روحاني » في واحد من ابعاده الخصبة .

هذه الملامح العريضة للانسان المستلب فالتحرر هي التي تشكل المضمون الفلسفي لبعض انتاج نجيب القصصي في مرحلته الجديدة . وهذه الملامح تختلف - قليلا او كثيرا عما يمثله لدى المفكرين الاخرين الذين اهتموا بمشكلة « الاستلاب » ، والحق ان هؤلاء « الاخرين » يختلفون ايضا في تصورهم وتجسيدهم لابعاد هذه الظاهرة البارزة في عصرنا الحديث وفي المجتمعات على السواء . ومما يخرج عن اطار هذا البحث ان نستطرد في ذكر هذه

( ٢٢ ) المقصود « فتى » مسرحية « بيت ويحيي » من مجموعة « تحت المظلة » .

« عبدالواحد » قسمات باهتة من الفلسفة الوجودية ، فهو يقول : ( علينا ان نختار على ضوء احترامنا لانفسنا ) و ( اني ارفض المحاكمة ، ارفض المهمة داخل مطروف مفلق ، ارفض النجاة الرخيصة ، الاختيار ارفض العقوبة داخل مطروف مفلق ، ارفض النجاة الرخيصة ) ، الاختيار والرفض ، وقبل ذلك الحرية والمهمة مقابل العدم . وقد تسرع فنقول : انها فلسفة سارتر تتكلم من خلال عبدالواحد . وخاصة اذا تذكرنا ان سارتر قد عالج موضوع الانسان الذي يتحول الى اداة في يد تنظيم حزبي في مسرحيته « الايدي القذرة » ( ٢٠ ) .

لكن سارتر يجعل حرية الانسان وقدرته على الاختيار مطلقة وغير مشروطة بدافع او قيمة قد قررت سلفا ويربط باللامعقول . بينما نجيب من خلال بطله « عبدالواحد » يجعل الرفض والحرية والاختيار - كلها - خاضعة للعقل واحترام الذات ، بل ان هذه النقطة هي اكثر الابعاد الفلسفية وضوحا في القصة . ان نجيب هنا مع الفلسفات العقلية ( لينتز مثلا ) التي تجعل الصلة بين العقل والحرية صلة وثيقة .

رفض الاستلاب ، فالحرية ، فالحب من جديد عن « المهمة » على اساس من العقل هي ابعاد الانسان الذي يريد ان يكون ذاته ، وينجز مهمته في عالم - كل العالم - يجعل من « الخوف » الها جديدا يعيد في كل وقت . لكن هذه الابعاد يجب ان تخضع للعقل والا انقلب « صحوة الانسان » الى انتفاضة انفغالية فوضوية يصيح « الكل » ازاءها عدوا وجحيما . ولقد صور لنا نجيب هذه الصحوة الانفغالية في قصة ( غير لولو ) ( ٢١ ) : عضو في وفد رسمي يمدى الى زيارة الجبهة ومسكرات اللاجئين وعندما يعود الى القاهرة يصعد الى برجها ويطلق النار في جميع الجهات .

لنعد الى « عبدالواحد » حيث تركناه في الخلاء يبحث عن مهمته . ان قدره مأساوي حزين . لكن لا بأس فهو يفي ذاته كإنسان قدر عليه ان يحمل « الامانة » التي ابتها الجبال . يختم كتابناقصته الرائعة بهذه الجملة تبيرا عن حال عبدالواحد بعد ان تركه صاحبه :

( وجد نفسه وحيدا . وجد نفسه حزينا . ولكنه لم يبدد دقيقة من وقته سدى . شعد ارادته لينفض عن قلبه الحزن . قلب وجهه في الجهات الاصلية ليحدد طريقه الى العمران . سار متوجها نحو الشرق ) . اي شرق؟ اهو مجرد اتجاه في المكان ( ولم لا يكون الشمال وهو الجهة التي انت منها الطائرة ، وهو ايضا جهة العمران ) ام انه اتجاه فكري ؟ وفي هذه الحالة ما الذي يرمز اليه الشرق ؟ بكيين ام يثرب ؟ الشيوعية ام التراث الاسلامي ؟ وعند هذا السؤال كان نجيب يتوقف بلا جواب محدد في روايتين سابقتين هما : القاهرة الجديدة . والسكرية . لكن السؤال ملح : اين يجد الانسان حقيقته وقوته في مواجهة العيب والانكسار والتمزق ؟ اكاد اقول ان نجيب محفوظ بعد النكسة قد وقف على ارض الجواب بعد حيرة . ففي مسرحيته « بيت ويحيي » ( ٢٢ ) يصر « الفتى » الذي يواجه عدوا هائلا يهدد وجوده . . يصر على ان ( الورا هو الامام ) وان الاموات ( احياء ما دمنا احياء . . والا فقد ادرك الفناء

( ٢٠ ) ترجمها الى العربية : سهيل ادريس واميل شوريري . ونشرتها دار العلم للملايين - بيروت . طبعتها الثانية كانت سنة ١٩٥٩ .  
( ٢١ ) القصة الاخيرة في مجموعة : حكاية بلا بداية ولا نهاية : ص : ٢٤٥ - ٢٨٤ .  
( ٢٢ ) المسرحية الاولى في مجموعة : تحت المظلة : ص ١٢٩ - ١٦٨ .

الاختلافات (٢٤) . حسبنا القول أن الصورة العامة التي قد يلتقون عندها هي أن الإنسان المستلب هو إنسان لا يفي ذاته بكل أبعادها . ويستكفي بإيراد صورة موجزة وواضحة للإنسان المستلب كما ترسمها لنا المفكرة الفرنسية « ما تيلدايل » Mathilde Niel التي كرست سني عمرها الأخيرة لبحث هذا الموضوع . وترتك للقارئ مهمة المقارنة التفصيلية بينها وبين نجيب محفوظ في هذه المشكلة . نقول:

« الإنسان المستلب .. يغشى في أن يكون ذاته ، ويفشل في أن يعيش دورا خلافا في علاقته مع الآخرين والأشياء ، أنه لا يعيش في الحاضر الذي يفشل في تقدير خصوصيته ، أنه مهتم بالمستقبل فحسب ، المستقبل الذي يقوده إلى البحث عن نوع من المطلق .. الإنسان المستلب لا يفكر أو يعمل بحافز من ذاته ، أنه يرجع على الدوام إلى شيء أو شخص خارج ذاته : كالتقاليد أو الدين أو الأيديولوجية .. أنه لا يعرف كيف يعيش في حوار مع الآخرين أو في آسن داخلي (مع ذاته) . أنه على الدوام بحاجة إلى آخر تبعده أو يخدمه ، ليكرمه أو يحاربه . أنه يقضي حياته يسعى ويلهث وراء شيء ما : غاية مادية تتحول لديه إلى غاية مطلقة (مثل تشهي الثراء أو الرفاهية أو رموز الهيبة والمكانة Symbols of Prestige أو يقضي حياته ساعيا وراء غاية روحية تجعله يزدري الحياة والعالم . أن حياته لهذا السبب تتراوح بين النجاح والإحباط فهو يصرها في الاستهواء والتوقع واليأس والتفديس والأزراء . الإنسان المستلب متوتر وفاس ، ضيق الألق ولا يتسامح ، أنه صاحب أهواء تحكم حياته . أنه يخاف المسؤولية ويخشى أن يكون مستغفلا في تفكيره وعمله . أنه إنسان هيب جان ممثل لاتجاه غالبية الناس »

... أما الإنسان المنحور Liberated فيتميز بأنه كريم ومتعايد وفنلج ، أنه يستطيع أن يمر عن شخصيته ومواهبه - من غير أن يكون مكرها على ذلك - في منجزات يئوية أو فكرية أو فنية أو في علاقاته مع الناس الآخرين . الإنسان الحر هو الذي يخس أنه يفي ذاته وفي نفس الوقت يكون على انسجام مع الآخرين . أنه فرد منحور عن الأوثان idôls أو الاعتقاد الدغمائية أو الأهواء المتخيزة أو الأفكار المسبقة . أنه متسامح ويستلهم حسا عميقا بالعدل والسواوة ، وهو - بعد - يفي نفسه كإنسان مفرد وعالي في نفس الوقت » . (٢٥) .

هناك نقاط تشابه واضحة ، وهناك نقطة اختلاف ظاهرة بين تصور نجيب ونيل للمشكلة . فإبقاء البعد الروحي في الإنسان هو محور في رأي نجيب لكنه استلاب في رأي السيدة نيل . وهذا الخلاف يرجع في بعضه إلى تأثير الإطار الحضاري الذي يتموضع فيه كل منهما : فنيل تتكلم عن الإنسان كما هو كائن وكما يجب أن يكون

(٢٤) نجيل القارئ الراقب في الاستزادة في مشكلة « الاستلاب » ونشأة هذا المصطلح وتطوره ، واختلاف المفكرين المعاصرين بصدد هذه المشكلة إلى مقالة G . Petrouic ( انظر الملاحظة (١٢) ) وفي ختامها ثبت بالكتب المهمة في هذا الموضوع . وإلى كتابات E . Fromm ( انظر الملاحظة « ١٥ » ) وفيه ثلاث مقالات تتناول المشكلة من وجهات نظر مختلفة . وإلى كتاب هربرت ماركوز : ( الإنسان ذو البعد الواحد ) . ترجمة : ج . طرابيشي . دار الآداب بيروت ط ٢ ، سنة ١٩٧١ .

Mathilde Niel : the Phenomenon Technology (٢٥) Liberation or Alienation of man , PP . 310 - ١١

وهي مقالة من مقالات كتاب E . Fromm ( انظر الملاحظة « ١٥ » ) وفي الأصل هي محاضرة ألقاها الكاتبة في السوربون في ٢٤ نوفمبر ١٩٦٢ .

في مجتمع تكنولوجي ، ويبدو أنها تستلهم « فيورباخ » و « ماركس » ( وقد ذهب إلى أن « آله » صورة فكرية استلابية صنعها الإنسان وغزب فيها كل صفات النبل والخير من ذاته ) ، بينما يستلهم نجيب مفهومه للإنسان من خلال الفلسفة الكلاسيكية ( وهذه النقطة لم توضح بشكل واف في هذا البحث ) ويشربه أوضاع الإنسان العربي وجروحه وتطلعاته : وهذا ما يبدو لنا جليا وواضحا في بعض قصص « تحت المظلة » ، ومتضمننا خفيا في القصص الأخرى .

لقد كتب نجيب محفوظ في « قصر الشوق » : « مواجهة القاتل بالقتيل فن » ، وهو في أكثر قصصه اتجديدة يبين لنا أن القاتل والقتيل أنهما إلا شخص واحد : أنه الإنسان هو المسئول عن نسيانه ومهمته وحرته المهلورة . ودور النظام الاجتماعي السياسي في هذا التصنيع المستمر للإنسان ؟ - أنه دور مهم ، وربما يكون الجواب الصحيح أنه ليس من العدل أن نطلب من القصص أن تقدم لنا نظريات متكاملة أو منظومات فلسفية شاملة تحاول تفسير كل شيء . فالقصص لا يمكن أن تكون نظريا وقصصا في آن واحد . وكل ما نستخلصه من كل أو بعض القصص السابقة الذكر أن الفكرة المسيطرة على أكتاف « هي أن الإنسان يملك أن يناضل ليسترجع ذاته المستلبة وليعيش وجوده الحق . وما الذي يريد الإنسان بهذا الاسترجاع ؟ نجاته فردية للإنسان عن طريق جهوده الذاتي ؟ وهل يستطيع الإنسان بمجرد أن يمتلك ذاته ويهتدي إلى مهمته أن يمارس حقها في الرفض والاختيار والخلاق ؟ وكيف يتيسر ذلك ما دامت الأنظمة - في الشرق والغرب وفي كل مكان - قد كرست القمع وبنيت حواجز الإرهاب التي تقف شامخة ( ويتزايد شموخها ) في وجه كل حق للفرد في النقد الجدي والرفض والاختيار ؟ وما فائدة مثل هذا الخلاص لفرد أو لعدة أفراد إذا كانت فسوى التفرقة والاستلاب ستظل مسيطرة على غالبية البشر في هذا العصر العجيب . عصر الهوان الزوق بالانقعة الملونة ؟ - لا نجد إرضية للجواب على مثل هذه الأسئلة في تلك القصص ، وإنما المهمة رجال الفكر والعلوم الإنسانية - لا الأدباء - أن يحاولوا حل هذه الألفاظ الموجعة المستعصية .

ومن الواضح أن هذا البحث لم يتناول إلا قصصا معدودة من أعمال نجيب محفوظ الأخيرة لأنه اقتصر في معالجته على موضوع واحد هو ( الاستلاب ونسيان المهمة ) (٢٦) . وقد تحدث في هذا البحث على المفرد الفلسفي والأخلاقي لهذه الأعمال ، وهذا الإلحاح لن يرضي الذين يرون في الفن رؤية جمالية تخلق أو تختصر أو تترجم واقعا نفسيا معاشا ، وهذه الرؤية تفسدها المواعظ والبرامبي الأخلاقية . نعم ، كثيرا ما تؤدي دعاوي الأخلاق الفن في صميم طبيعته . لكن تفرد نجيب محفوظ عن غيره يكمن في هذه النقطة : لقد استطاع بعمق رؤيته ، وبصنفته المتجددة على الدوام ، المتجاوزة باستمرار لمقولات النظريات النقدية الجاهزة .. استطاع أن يكون فنانا عظيما ومناضلا مثابرا في الوقت نفسه . وقد أثبت - منذ أن نشر ثلاثيته العظيمة - منذ سبع عشرة سنة وإلى اليوم - أنه قادر على أن يشير فينا جروحنا العميقة التي تفنوا في أغلب الأحيان تحت قشرة سميكة من التمرد والاضطرار . أن نجيب يكتب بنمته وعقله معا ، ومن وراء سجع الكتابة والعذاب التي تشتمل على أكثر شخصياته تبيين - رغم ذلك - بصيص نور متاح للإنسان الذي يعي مأساته ويريد القضاء على أسبابها . وبهذا فإن قراءة نجيب محفوظ دائما . وحتى في قصصه الفلسفية الجديدة - تظل تخلق فينا أملا ولذة ومعرفة وإرادة في آن واحد .

١ . ن . ذياب

(٢٦) في نية الباحث أن يعود مستقبلا ليتناول مفصلة ( الموت والحياة واليقين ) من خلال القصص الأخرى في هذه المرحلة .